بسم الله الرحمن الرحيم

٧٥ — سورة القيامة

قال المهايمىّ : سميت به لتضمنها غاية تعظيم ذلك اليوم ، من لا يتناهى ثوابه وعقابه ، بحيث تتحسّر فيه كل نفس من تقصيرها ، وإن عملت ما عملت .

وهى مكية . وآيها أربعون .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ)

[٢] (وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ)

« لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ * وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ » قال القاشانىّ : جمع بين القيامة والنفس اللوامة ، فى القسم بهما ، تعظيما لشأنهما ، وتناسبًا بينهما . إذ النفس اللوامة ، هى المصدقة بها ، المقرة بوقوعها ، المهيئة لأسبابها ، لأنها تلوم نفسها أبداً فى التقصير ، والتقاعد عن الخيرات ، وإن أحسنت ، لحرصها على الزيادة فى الخير ، وأعمال البر ، تيقظًا بالجزاء ، فكيف بها إن أخطأت وفرطت وبدرت منها بادرة غفلة ونسيانا .

ومر الكلام على (لَآ أُقْسِمُ) فى مواقعه قبل هذا فتذكر . وحذف جواب القسم لدلالة قوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ)

[٤] (بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ)

« أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ » عليه ، وهو لتبعثُنَّ . قال القاشانىّ : المراد بالقيامة ، ههنا ، الصغرى ، لهذه الدلالة بعينها .

« بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ » أى بلى ! نجمع عظامه ، قادرين تسوية بنانه التى هى أطراف خلقته وتمامها ، على صغرها ولطافتها ، وضم بعضها إلى بعض ، فكيف بكبار العظام ؟ !

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥] (بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ)

« بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ » أى ليدوم على الفجور، فيما يستقبله من الزمان، ولا يثنيه عنه شىء ، ولا يتوب منه أبداً .

قال الشهاب : (أَمَامَهُۥ) ظرف مكان ، استعير هنا للزمان المستقبل ، فيفيد الاستمرار . والضمير للإنسان ، أو ليوم القيامة . وقيل الدوام والاستمرار ، لأنه خبر عن حال الفاجر ، بأنه يريد ليفجر فى المستقبل . على أن إرادته وحسبانه هما عين الفجور . وفى إعادة المظهر مالا يخفى من التهديد ونعى قبيح ما ارتكبه، وأن الإنسانية تأباه. وقيل: حمله على الاستمرار ليصح الإضراب ، ويصير المعنى : بل يريد الإنسان أن يستمر على فجوره ، ولا يتوب ، فلذا أنكر البعث .

وقال القاشانىّ : أى ليدوم على الفجور بالميل إلى اللذات البدنية ، والشهوات البهيمية، غارزا رأسه فيها ، فيما بين يديه من الزمان الحاضر والمستقبل ، فيغفل عن القيامة لقصور نظره عنها ، وكونه مقصوراً على اللذات العاجلة ، وفرط تهالكه عليها، واحتجابه بها عن الآجلة، سائلاً عنها ، متعنتاً مستبعداً إياها ، كما قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ)

[٧] (فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ)

[٨] (وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ)

[٩] (وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ)

[١٠] (يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ)

[١١] (كَلَّا لَا وَزَرَ)

[١٢] (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ)

[١٣] (يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)

« يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ » أى متى يكون ؟ استبعاداً وهزؤاً . والجملة استئناف أو حال أو تفسير لقوله (يفجر) ، أو بدل منه والاستئناف بيانىّ ، كأنه قيل: لِمَ يريد الدوام على الفجور ؟ قيل : لأنه أنكر البعث واستهزأ به « فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ » أى تحير ودهش. أى لما أتى من أمر الله . قال مجاهد : أى عند الموت . « وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ » أى ذهب ضوؤه « وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ » أى جمع بينهما فى ذهاب الضوء ، فلاضوء لواحد منهما . وقيل: إنها يجمعان ثم يكوران ، كما قال جل ثناؤه[1] (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ) قال ابن زيد : جمعا فرمى بهما فى الأرض . « يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ » أى الفرار . أى يطلب مهرباً ومحيصاً لدهشته ، أو يقوله قول الآيس لعلمه بأنه لا قرار حينئذ . « كَلَّا » ردع له عن طلب المفر ، « لَا وَزَرَ » أى لا ملجأ . « إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ » أى مستقر العباد، من نار أو جنة . أى مفوض إليه لا إلى غيره مستقرهم ، أو استقرار أمرهم ، والحكم فيهم « يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ » أى من عمله الذى يوجب نجاته وثوابه ، من الخيرات والصالحات ، « وَأَخَّرَ » أى منه ففرط وقصر فيه ولم يعمله .

قال الشهاب : (مَا قَدَّمَ) كناية عما عمل ، و (ما أخر) ما تركه ولم يعمله . وهو مجاز مشهور فيما ذكر . أو ماقدمه، ماعمله، وماأخره، عمل من اقتدى به بعده عملًا له، كأنه وقع منه .

---

(١) [٨١ / التكوير / ١] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ)

[١٥] (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ)

« بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ » قال القاشانىّ : أى حجة بينة ، يشهد بعمله ، لبقاء هيآت أعماله المكتوبة عليه فى نفسه ، ورسوخها فى ذاته ، وصيرورة صفاته صور أعضائه ، فلا حاجة إلى أن ينبأ من خارج .

قال الشهاب : (بَصِيرَةٌ) مجاز عن الحجة الظاهرة . أو (بَصِيرَةٌ) بمعنى بينة ، وهى صفة لحجة مقدرة . وجعل الحجة بصيرة لأن صاحبها يبصر بها ، فالإسناد مجازىّ . أو هى بمعنى دالة مجازًا . أوهو استعارة مكنية وتخييلية . و (ٱلْإِنسَـٰنُ) مبتدأ ، و (بَصِيرَةٌ) خبره ، و (عَلَىٰ) متعلق به . والتأنيث للمبالغة ، أو لكونه صفة (حجة) .

« وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ » أى ولو ألقى أعذاره مجادلًا عن نفسه بكل معذرة . وفيه إشارة إلى أن ما عليه المشركون من الشرك وعبادة الأوثان ، وإنكار البعث ، منكر باطل ، تنكره قلوبهم ، وأنهم فى دفاعهم يجادلون بالباطل . ولا غرو أن ينكر القلب ماتدفعه الفطرة السليمة ، والدين دين الفطرة .

قال الشهاب : شبه المجىء بالعذر بإلقاء الدلو فى البئر للاستقاء به ، فيكون فيه تشبيه لذلك بالماء المروىّ للعطش .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ)

[١٧] (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ)

[١٨] (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُو)

[١٩] (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُو)

« لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ » أى لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحى، لتأخذه على عجلة ، مخافة أن يتفلت منك . « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُو » أى فى صدرك ، وإثبات حفظه فى قلبك ، بحيث لا يذهب عليك منه شىء . « وَقُرْءَانَهُو » أى أن تقرأه بعدُ فلا تنسى « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ » أى أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل عليه السلام ، « فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُو » أى كن مقفياً له ولا تراسله . « ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُو » أى بيان ما فيه ، إذا أشكل عليك شىء من معانيه ، أو أن نُبَيِّنَه على لسانك .

تنبيهات :

الأول ـ ماذكرناه فى تأويل الآية هو المأثور فى الصحيحين وغيرهما. ولفظ البخارىّ[1] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يحرّك شفتيه إذا أُنزل عليه ، فقيل له (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ) يخشى أن يتفلت منه (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُو) أن نجمعه فى صدرك (وَقُرْءَانَهُو) أن تقرأه (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ) يقول أنزل عليه (فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُو * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُو) أن نبيّنه على لسانك. زاد فى رواية : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك، إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل ، قرأه النبىّ ﷺ كما قرأه .

قال ابن زيد : أى لا تكلم بالذى أوحينا إليك ، حتى يقضى إليك وحيه ، فإذا قضينا إليك وحيه ، فتكلم به . يعنى : أن هذه الآية نظير قوله تعالى[2] (وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُو وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا) .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١ ـ كتاب بدء الوحى ، ٤ ـ حدثنا موسى بن إسماعيل ، حديث رقم ٥ .

(٢) [٢٠ / طه / ١١٤] .

قال ابن كثير : وهكذا قال الشعبيّ والحسن البصريّ وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد؛ أن هذه الآية نزلت فى ذلك، وأنها تعليم من الله عز وجل لرسوله، كيفية تلقيه الوحى.

الثانى ـ ذكروا فى مناسبة وقوع الآية معترضة فى أحوال القيامة ـ على تأويلهم المتقدم ـ وجوهاً :

منها ـ تأكيد التوبيخ على ما جبل عليه الإنسان ـ والمرء مفتون بحب العاجل ـ حتى جعل مخلوقاً من عجل . ومن محبة العاجل ، وإيثاره على الآجل، تقديم الدنيا الحاضرة على الآخرة، الذى هو منشأ الكفر والعناد، المؤدى إلى إنكار الحشر والمعاد. فالنهى عن العجلة فى هذا يقتضى النهى فيما عداه، على آكد وجه. وهذه مناسبة تامة بين ما اعترض فيه وبينه. قاله الشهاب .

ومنها ـ أن عادة القرآن ، إذا ذكر الكتاب المشتمل على عمل العبد ، حيث يعرض يوم القيامة ، أردفه بذكر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية فى الدنيا التى تنشأ عنها المحاسبة عملاً وتركاً ، كما قال فى الكهف[1] (وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ) إلى أن قال[2] (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ) الآية . وقال فى طه[3] (يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) إلى أن قال[4] (فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا) .

ومنها ـ أن أول السورة لما نزل إلى قوله (وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ) صادف أنه ﷺ فى تلك الحالة بادر إلى تحفظ الذى نزل، وحرّك به لسانه من عجلته خشية من تفلته، فنزلت (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ) إلى قوله (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) ثم عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدأ به .

قال الفخر الرازىّ : ونحوه ما لو ألقى المدرس على الطالب مثلاً مسألة ، فتشاغل الطالب بشىء عرض له فقال له : ألق إلىّ بالك ، وتفهّم ما أقول . ثم كمل المسألة . فمن لا يعرف

(١) [١٨ / الكهف / ٤٩] . (٢) [١٧ / الإسراء / ٨٩] .
(٣) [٢٠ / طه / ١٠٢] . (٤) [٢٠ / طه / ١١٤] .

السبب يقول : ليس هذا الكلام مناسباً للمسألة ، بخلاف من عرف ذلك ـ قاله الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) ـ .

الثالث ـ استدلوا على التأويل السابق بقوله تعالى (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب ، كما هو مذهب الجمهور لما تقتضيه (ثم) من التراخى . وأول من استدل لذلك بهذه الآية القاضى أبو بكر بن الطيب ، وتبعوه . وهذا لا يتم إلا على تأويل البيان بتبيين المعنى ، وإلا فإذا حمل على أن المراد استمرار حفظه له ، وظهوره على لسان ، فلا ! .

قال الآمدىّ : يجوز أن يراد بالبيان الإظهار ، لا بيان المجمل . يقال (بان الكوكب إذا ظهر) قال : ويؤيد ذلك أن المراد جميع القرآن ، والمجمل إنما هو بعضه ، ولا اختصاص بالأمر المذكور دون بعض .

وقال أبو الحسين البصرىّ : يجوز أن يراد البيان التفصيلىّ ، ولا يلزم منه جواز تأخير البيان الإجمالىّ ، فلا يتم الاستدلال . وتعقب باحتمال إرادة المعنيين : الإظهار والتفصيل وغير ذلك ، لأن قوله (بيانه) جنس مضاف ، فيعم جميع أصنافه من إظهاره وتبيين أحكامه ، وما يتعلق بها من تخصيص وتقييد ونسخ وغير ذلك ـ قاله الحافظ فى (الفتح) ـ .

وجوز القفال أن تكون (ثم) للترتيب فى الإخبار . أى ثم إنا نخبرك بأن علينا بيانه ، فلا تدل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب . وضعفه الرازىّ بأنه ترك للظاهر من غير دليل .

الرابع ـ ما قدمناه من معنى قوله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) الخ ، وما استفيد منه ، وما قيل فى مناسبته لما قبله ، كله إذا جرى على المأثور فيها . وحاول القفال معنى فقال كما نقله عنه الرازى ـ : إن قوله تعالى (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ) ليس خطاباً مع الرسول ﷺ بل هو خطاب مع الإنسان المذكور فى قوله[1] (يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) فكان ذلك حال ما ينبأ بقبائح أفعاله ، وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له[2] (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) . فإذا أخذ فى القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف ،

(١) [٧٥ / القيامة / ١٣] . (٢) [١٧ / الإسراء / ١٤] .

وسرعة القراءة ، فيقال له (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ) فإنه يجب علينا بحكم الوعد ، أو بحكم الحكمة ، أن نجمع أعمالك عليك ، وأن نقرأها عليك ، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه ، بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال . ثم إن علينا بيان أمره ، وشرح مراتب عقوبته . وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية : أن المراد منه ؛ أنه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله ، على سبيل التفصيل . وفيه أشد الوعيد فى الدنيا ، وأشد التهويل فى الآخرة .

ثم قال القفّال : فهذا وجه حسن ، ليس فى العقل ما يدفعه ، وإن كانت الآثار غير واردة به . انتهى .

ونقل الشهاب أن بعضهم ارتضى هذا الوجه ، وقدمه على الوجه السابق .

وزعم الحافظ ابن حجر أن الحامل على هـذا الوجه الأخير هو عسر بيان المناسبة بين هذه الآية وما قبلها من أحوال القيامة . أى ولما بيّن الأئمة المناسبة التى أثرناها عنهم ، لم يبق وجه للذهاب إلى هذا الوجه الأخير ، مع أن هذا الوجه ـ هو فيما يظهر ـ فيه غاية القوة والارتباط بما قبله وما بعده ، مما يؤثره على المأثور ، الذى قد يكون مدركه الاجتهاد ، والوقوف مع ظاهر ألفاظ الآية . ومما يؤيده ما أورد عليه أن ابن عباس لم ير النبىّ ﷺ فى تلك الحال ، لأن الظاهر أن ذلك كان فى مبدأ البعث النبوىّ ، ولم يكن ابن عباس وُلد حينئذ . ولا مانع ـ كما قال ابن حجر ـ أن يخبر النبىّ ﷺ بذلك بعدُ ، فيراه ابن عباس ، أو يخبر به ، فيكون من مراسيل الصحابة ـ والله أعلم ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ)

[٢١] (وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ)

[٢٢] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ)

[٢٣] (إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[٢٤] (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ)

[٢٥] (تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)

« كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ » أى الدنيا العاجلة ، بإيثار شهواتها . « وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ » أى بالإعراض عن الأعمال التى تورث منازلها ، أو تنسون الآخرة ووعيدها ، وهول حسابها وجزائها . « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ » أى حسنة جميلة من النعيم « إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » أى مشاهدة إياه ، ترى جمال ذاته العلية ، ونور وجهه الكريم ، كما وردت بذلك الأخبار والآثار عن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه . « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ » أى كالحة ، لجهامة هيآتها ، وهول ما تراه هناك من الأهوال ، وأنواع العذاب والخسران . « تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » أى داهية تفصم فقار الظهر ، لشدتها وسوء حالها ووبالها . وشتان ما بين المرتبتين ! ويظهر أن فى عود الضمير من (بها) إلى الوجوه ـ مراداً بها الذوات ـ شبه استخدام . ولم أر من نبه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ)

[٢٧] (وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ)

[٢٨] (وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ)

[٢٩] (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)

[٣٠] (إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)

« كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ » أى بلغت النفس أعالى الصدر . وإضمارها ، وإن لم يجر لها ذكر ، لدلالة السياق عليها ، كقول حاتم :

أماوىّ مَا يُغْنِى الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

قال الرازىّ : يكنى ببلوغ النفس التراقى ، عن القرب من الموت ، ومنه قول دريد ابن الصمة :

ورب عظيمة دافعتُ عنها وقد بلغَتْ نفوسُهُمُ التَّراقِى

ونظيره قوله تعالى [١] : (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ) . « وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ » قال [٢] ابن جرير : أى وقال أهله : مَنْ ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به ، وطلبوا له الأطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذى قد نزل به شيئاً . أى فالاستفهام بمعنى الطلب لراقٍ أوطبيب. وجوز كونه بمعنى الإنكار ، يأساً من أن يقدر أحد على نفعه برقية أو عوذة .

لطيفة .

قال الواحدىّ : إن إظهار النون عند حروف الفم لحن . فلا يجوز إظهار نون (مَنْ) فى قوله (مَنْ رَاقٍ) . وروى حفص عن عاصم إظهار النون فى قوله (مَنْ رَاق) و (بَلْ رَانَ) قال أبو على الفارسىّ : ولا أعرف وجه ذلك . قال الواحدىّ : والوجه أن يقال قصد الوقف على (مَنْ) و (بَلْ) فأظهرهما . ثم ابتدأ بما بعدهما . وهذا غير مرضىّ من القراءة . انتهى نقله الرازىّ .

« وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ » أى وأيقن الذى قد نزل ذلك به، أنه فراق الدنيا والأهل والمال. « وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ » أى التوت ساقه بساقه ، فلا يقدر على تحريكها . وقيل : هما ساقاه ، إذا التفتا فى الكفن . وقيل : الساق عبارة عن الشدة ، كما مر فى سورة (القلم) . والتعريف للعهد أيضاً .

قال الشهاب : فإن قلت : ما مرّ هو الكشف عن الساق، ووجهه ظاهر، لأن المصاب يكشف عن ساقه ، فكيف ينزل هذا عليه ؟

قلت : الأمر كما ذكرت ، لكنه شاع فيه ، ففهم ذلك من الساق وحده ، حتى صار

(١) [٥٦ / الواقعة / ٨٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٩٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

عبارة عن كل أمر فظيع ـ كما أشار إليه الراغب ـ انتهى .

« إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ » أى سوقه إلى حكمه تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ)

[٣٢] (وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)

[٣٣] (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ)

[٣٤] (أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ)

[٣٥] (ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ)

[٣٦] (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)

[٣٧] (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ)

[٣٨] (ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ)

[٣٩] (فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ)

[٤٠] (أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ)

« فَلَا صَدَّقَ » أى بالدين والكتاب . أو صدق ماله ، أى ما زكاه « وَلَا صَلَّىٰ » أى الصلاة التى هى رأس العبادات ، التى سها عنها . « وَلَٰكِن كَذَّبَ » أى بدل التصديق « وَتَوَلَّىٰ » أى بدل الصلاة التى بها كمال التوجه إلى الله تعالى « ثُمَّ » أى مع هذه التقصيرات فى جنب الله تعالى « ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ » أى يتبختر فى مشيته . وأصله (يتمطط) أى يتمدد ، لأن المتبختر يمد خطاه .

تنبيهات

الأول ـ الضمير فى الآيات للإنسان المتقدم فى قوله تعالى (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ) .

الثانى ـ قال الرازىّ : إنه تعالى شرح كيفية عمله فيما يتعلق بأصول الدين وفروعه ، وفيما يتعلق بدنياه . أما ما يتعلق بأصول الدين فهو أنه ماصدق بالدين ، ولـكن كذب به . وأما ما يتعلق بفروع الدين فهو أنه ما صلى ، ولـكنه تولى ، وأعرض . وأما مايتعلق بدنياه، فهو أنه ذهب إلى أهله يتمطى ويختال فى مشيته .

الثالث ـ دلت الآية على أن الـكافر يستحق الذم والعقاب بترك الصلاة ، كما يستحقهما بترك الإيمان .

الرابع ـ قال الرازىّ : قال أهل العربية : (لا) ههنا فى موضع (لم) فقوله : (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ) أى لم يصدق ولم يصلّ ، وهو كقوله [1] (فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ) أى لم يقتحم . وكذلك ما روى [2] : أرأيت من لا أكل ولا شرب ولا استهل . قال الـكسائىّ : لم أر العرب قالت فى مثل هذا كلمة وحدها ، حتى تتبعها بأخرى، إما مصرحاً بها ، أومقدراً. أما المصرح ، فلا يقولون لا عبد الله خارج ، حتى يقولوا ولا فلان ، ولا يقولون مررت برجل لا يحسن، حتى يقولوا ولا يجمل . وأما المقدر فهو كقوله (فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ) ثم اعترض الـكلام فقال (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَٰمٌ) وكان التقدير : لافك رقبة ولا أطعم مسكيناً ، فاكتفى به مرة واحدة . ومنهم من قال : التقدير فى قوله (فَلَا ٱقْتَحَمَ) أى أفلا اقتحم ، وهلا اقتحم . انتهى « أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ » أى ويل

(١) [٩٠ / البلد / ١١] . (٢) يشير إلى الحديث الذى أخرجه البخارىّ فى صحيحه فى : ٧٦ ـ كتاب الطب ، ٤٦ ـ باب الـكهانة ، حديث رقم ٢٢٦٩ ، عن أبى هريرة ، ونصه : أن رسول الله ﷺ قضى فى امرأتين من هذيل اقتتلتا ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهى حامل ، فقتلت ولدها الذى فى بطنها . فاختصموا إلى النبىّ ﷺ فقضى أن دية ما فى بطنها غرةٌ : عبد أو أَمَةٌ . فقال ولىّ المرأة التى غرمت : كيف أغرم يارسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهلّ ، ومثل ذلك بطل ؟ فقال النبىّ ﷺ : إنما هذا من إخوان الـكهّان .

لك مرة بعد مرة . دعاء عليه بأن يليه ما يكرهه ولاء متكرراً متضاعفاً .

وقيل : المعنى بُعْدًا لك . فبعداً فى أمر دنياك ، وبعداً لك فبعداً فى أمر أخراك ـ حكاه الرازىّ عن القاضى ـ ثم قال : قال القفال : هذا يحتمل وجوهاً :

أحدها ـ أنه وعيد مبتدأ من الله للكافر .

والثانى ـ أنه شىء قاله النبىّ ﷺ لعدوه ـ يعنى أبا جهل ـ فاستنكره عدو الله لعزته عند نفسه ، فأنزل الله تعالى مثل ذلك .

والثالث ـ أن يكون ذلك أمراً من الله لنبيه بأن يقولها لعدو الله ، فيكون المعنى : ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، فقل له يامحمد : أولى لك فأولى ، أى احذر ، فقد قرب منك ما لاقبل لك به من المكروه . انتهى والأظهر هو الأول ـ .

لطيفة :

تفسير (أَوْلَىٰ لَكَ) بـ (ويل لك) قال الشهاب: هو محصل معناه المراد منه ، فإنه مثله ، فيرد للدعاء عليه ، أو للتهديد والوعيد .

وعن الأصمعىّ أنها تكون للتحسر على أمر فات .

هذا هو المعنى المراد بها . وأما الكلام فى لفظها فقيل : هو فعل ماض دعائىّ من (الولى) واللام مزيدة . أى أولاك الله ما تكرهه . أو غير مزيدة ، أى أدنى الهلاك لك . وقريب منه قول الأصمعىّ : إن معناه قاربه ما يهلكه أن ينزل به . واستحسنه ثعلب .

وقيل : إنه اسم وزنه (أفعل) من الويل ، فقلب . وقيل فَعْلَىٰ ، ولذا لم ينون . ومعناه ما ذكر ، وألفه للإلحاق لا للتأنيث . وعلى الاسمية هو مبتدأ ، و (لك) الخبر . وقيل : إنه اسم فعل مبنىّ ، ومعناه وَلِيَك شر بعد شر .

ونقل الزمخشرىّ عن أبى علىّ أنه عَلَمٌ لمعنى الويل ، وهو غير منصرف للعلمية ووزن الفعل . وقيل عليه : إن الويل غير متصرف ، ومثل (يوم أيوم) غير منقاس ، ولا يفرد عن الموصوف . وادعاء القلب من غير دليل ، لا يسمع ، وعلم الجنس خارج عن القياس . فما ذكر بعيد من وجوه عدة . وقيل : الأحسن أنه أفعل تفضيل خبر لمبتدأ يقدر كما يليق بمقامه . فالتقدير هنا :

النار أولى لك . يعنى : أنت أحق بها ، وأهل لها . انتهى .

« أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى » أى : هملًا لا يؤمر ولا ينهى ولا يجازى ، مع أنه الإنسان الذى أودع العقل وعلِّم البيان ، وغرز فى طبعه أن يعيش مجتمعاً ، وخص من المواهب ما فضل على غيره. فمن تمام الإحسان إليه إنقاذه من حيرته، وإعلامه بسبيل هدايته، وأن لا يترك خابطاً فى متائه جهالته، وقد كان ذلك بفضل الله ونعمته ، كما أشار لذلك بقوله:

« أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ » أى يصبّ فى الرحم .

« ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً » أى دماً « فَخَلَقَ » أى قدّر أعضاءه « فَسَوَّىٰ » أى سوى تلك الأعضاء لأعمالها وعدّلها .

« فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ » أى الصنفين « ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ » أى لبقاء نوعه ، يعمر الدنيا إلى الأجل الذى كتبه وقدره .

«أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ» أى فيوجدهم بعد مماتهم لعمارة الآخرة.

وقد روى أن النبىّ ﷺ كان إذا قرأها قال: سبحانك ، فبلى ـ رواه أبو داود عن رجل من الصحابة. ورواه أيضاً عن أبى هريرة بلفظ: من قرأ (لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ) فانتهى إلى (أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ) فليقل : بلى . ورواه الإمام أحمد والترمذى أيضاً ـ والله أعلم ـ .

بحمده تعالى وعونه ، كمل هذا الجزء فى أوائل محرم سنة ١٣٢٧

بمنزلنا فى زقاق الكتبى ، فى خط قصر حجاج

ظاهر باب الجابية . على يد جامعه وكاتبه

الحقير محمد جمال الدين القاسمىّ

الدمشقىّ

تمّ الجزء السادس عشر، ويليه إن شاء الله ، الجزء السابع عشر،

وفيه تفسير مابقى من سور الكتاب الكريم